"من كناشة النوادر"(٨)

للأستاذ عبد السلام هارون

أصل ما انقطع من القول بعد عام كامل عثرت فيه على نوادر من النصوص التى تضمنا إلى ركب التراث العربى بكنوزه الغالية ، تجديدا للشوق إليه ووفاءً لفضله على حضارتنا الراهنة القائمة على أساس من أركانه الوطيدة ودعائمه الراسية .

. . . . . .

بغداد فى التاريخ

جنة الأرض :

قال الثعالبى فى شأنها :

يقالَ لبغداد : جنة الأَرض ، ومجتمع الرافدين : دجلة والفرات ، وواسطة الدنيا ومدينة السلام ، وقبة الإسلام ، لأنها غرة البلاد ، ودار الخلافة ، ومجمع المحاسن والطيبات ، ومعدن الطرائف واللطائف . ونها أرباب النهايات فى كل فن وآحاد الدهر فى كل نوع .

وكان أبو إسحاق الزجاج يقول : بغداد حاضرة الدنيا وماعداها بادية وكان أبو الفرج الببغا يقول : هى مدينة السلام ، بل مدينة الإسلام ، فإن الدولة النبوية والخلافة الإسلامية بها عششتا وفرختا ، وضربتا بعروقهما وسمتا بفروعهما وإن هواءها أعدل من كل هواءٍ ، وماءها أعذب من كل ماءٍ ، ونسيمها أرق من كل نسيم وهى من الإقليم الاعتدالى بمنزلة المركز من الدائرة ، ولم تزل موطن الأكاسرة فى سالف الأزمان ومنزل الخلفاء فى دولة الإسلام .

(*) ألقى البحث فى الجلسة السابعة ليوم الاثنين ٢٩ / ٢ / ١٩٨٨ م .

وكان أبو الفضل بن العميد إذا طرأ عليه أحد من منتحلى العلم ، وأراد امتحان عقله سأله عن بغداد فإن فطن عن خواصها ونبّه على محاسنها وأثنى عليها خيرا جعل ذلك مقدمة فضله ، وعنوان عقله . ثم سأله عن الجاحظ فإن وجد عنده أثرا بمطالعة كتبه والاقتباس من ألفاظه وبعض القياس بمسائله ، قضى بأنه غرة شادخة فى العلم وإن وجده ذاماً لبغداد ، غافلا عما يجب أن يكون موسوما به من الانتساب إلى المعارف التى يختص بها الجاحظ لم ينتفع بعد ذلك عنده بشىء من المحاسن ولما رجع الصاحب من بغداد ، وسأله ابن العميد عنها قال : بغداد فى البلاد كالأستاذ فى العباد : فجعلها مثلا فى الغاية من الفضل والكمال .

لا يموت فيها خليفة :

قال : ومن عجيب شأنها : أنها على كونها الحضرة الكبرى لاستيطان الخلفاء إياها لايموت بها خليفة ، كما قال عُمارة بن عقيل بن جرير بن بلال :

أعاينت فى طول من الأرض أو عرض
كبغداد دارا ، إنها جنةُ الأرض
قضى ربها ألاَّ يموت خليفة
بها ، إنه ماشاء فى خلقه يقضى

ولما فرغ المنصور من بنائها سنة ١٤٦هـ أمر نوبخت المنجم — وكان متقدما فى علم النجوم — بأن يأخذ المطالع ويتعرف أحوالها ، ففعل ووجد المشترى فى القوس والقوس طالعها ، فأخبره بما تدل عليه النجوم من طول ثباتها ، وكثرة عمارتها وانصباب الدنيا عليها وفقر الملوك والسوقة إليها فَسُرَّ المنصور وقرأ :

« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

ثم قال له نوبخت : وخصلة أخرى ياأمير المؤمنين هى من أعجب خصائصها ، قال :

وماهى ؟ . قال : لايموت بها خليفة أبدا .

فجرى الأمر فيه على حكمه إلى زماننا هذا بإذن الله تعالى ، وذلك أن المنصور مات بمكة سنة ١٥٨هـ والمهدى بماسبذان ،

والهادى بعيا آباد ، والرشيد بطوس ، وقتل الأمين ، ومات المأمون بطرسوس ، والمعتصم بسر من رأى ، والواثق بها ، وقتل المتوكل ، ومات المنتصر بسر من رأى ، وخلع المستعين ، وكذلك المعتز ، وقتل المهتدى ، ومات المعتمد بالحسنية ، وكذلك المعتضد والمكتفى ، وقتل المقتدر وقتل القاهر ، ومات الراضى بالحسنية ، وقتل المتقى والمستكفى ، ومات المطيع بدير العاقول وخلع الطائع .

التصفية

الباحث فى كتب التراث كثيرا مايعثر على ألفاظ يمكن إطلاقها على مدلول الألفاظ الدخيلة أو المعربة بدلا منها ، وكم فى العربية من كنوز يعوزها الباحث فمن ذلك ماعثرت عليه فى كتاب نكت الهميان فى نكت العميان للإمام الصفدى فى ترجمة على بن أحمد بن يوسف ابن الخضر [1] ، أن بعض أصحابه أهدى إليه نصفية حسنة فسرقت من بيته ، فرأى شيخه الإمام مجد الدين شيخ القراء ببغداد : فى النوم وهو يقول له : النصفية أخذها فلان وأودعها عند فلان ، اذهب وخذها منه ، فلما استيقظ ذهب إلى هذا الرجل فدق عليه الباب فخرج إليه ، فقال : أعطنى النصفية التى أودعها فلان عندك ، ودخل فأخرجها له فأخذها وذهب ولم يقل شيئا .

وواضح أن المراد بالنصفية الحسنة هنا ثوب يغطى نصف الجسد وهو مايقال له فى الألفاظ الدخيلة جاكت أو جاكتة للرجال ، وبلوز أو بلوزة للسيدات .

فالأولى بلاريب أن يستعمل فيها هذا اللفظ الصحيح الفصيح الذى سرعان مايحتل مكانه الأمين فى لغتنا العزيزة .

* * *

(١) نكت الهميان ٢٠٦ .

الافـراط فى التوكل

يروى السيوطى فى بُغية الوعاة[1] أن ابن بابشاذ النحوى أحد أعلام العربية كان من تجار اللؤلؤ فى العراق ، وأخذ عن علمائها ورجع إلى مصر واستُخدم فى ديوان الرسائل يتأمل مايخرج من الديوان من الإنشاء فى الرسائل ويصلح مايراه من الخطأ فى الكتابة أو فى النحو أو فى اللغة ، وكانت له حلقة اشتغال بجامع مصر ، ثم تزهد وانقطع عن التدريس .

وسبب ذلك أنه كان جالسا يأكل فجاءه سنور ، فكان إذا ألقى شيئا لايأكله ، بل يحمله فى فيه ويمضى ، وكثر ذلك منه ، فتبعه يوما لينظر أين يذهب بما يحمل فإذا هو يحمله إلى موضع مظلم فيه سنورة عمياء فيلقى إليها بما يحمله فتأكله ، فعجب وقال : إن الذى سخر هذا لهذه ليجيئها بقوتها قادر على أن يغنينى عن هذا العالم ! فلزم منارة الجامع بمصر . وخرج منها فى بعض الليالى والليل مقمر : وفى عينه بقيه من نوم ، فسقط من المنارة إلى سطح الجامع فمات فى الحال .

وكان هذا عاقبة إفراطه فى التوكل .

* * *

(١) بغية الوعاة ٢٧٢ .

اللبخــة

هى اللعبة الشعبية التى يسميها عامة أهل مصر (التحطيب) ، وهى تسمية غير سليمة ، وإنما هى لعبة العصىّ . فلم يرد الفعل حطَّب فى اللغة الفصيحة ، كما أن الحطب اسمٌ لما أعد من الشجر شَبوبا للنار من عيدان الشجر الدقيقة على حين تكون العيدان التى تتخذ لهذه اللعبة عيدانا غليظة صلبة تصمدللمضاربة .

وقد تطورت هذه التسمية ، أى التحطيب من تسمية قديمة صحيحة ، هى «اللَّبَخَة» واللبخ : شجر عظام كانت تنشر ألواحه ويجعلها الملاحون فى بناء السفن الضخمة فتلتحم بعد عام وتصير لوحا واحدا . وهو غير شجر اللبخ المعروف الآن . فإن اللبخ الذى يذكر فى هذا شجر ضخم أيضا له ثمر أخضر يشبه التمر حلو جدا إلا أنه كريه .

وقد وصف اللبخة المثمرة هذا عبد اللطيف البغدادى فى رحلة إلى مصر . ورآها ابن المكرم صاحب لسان العرب بجزيرة مصر الروضة ، كما فى اللسان (لبخ) وجاء فى حواشى النجوم الزاهرة[1] :

«وشهدها المقريزى مثمرة ، ولم نسمع عنها شيئا بعد ذلك .

وفى الطبقات الكبرى للشعرانى فى ترجمة عثمان الخطاب المتوفى سنة نيف وثمانمائة : «وكان شجاعا يلعب اللبخة فيخرج له عشرة من الشطار ويهجمون عليه بالضرب فيمسك عصاه من وسطها ويردّ الجميع فلا تصيبه واحدة قال[2] الشعرانى : «هكذا خبر عن نفسه فى صباه» .

وإذا أردنا أن نعرف أولية هذه اللعبة وجدنا جواب ذلك فى النجوم الزاهرة فى سنة ٧٤٦ إذ يقول ابن تغرى

---

(١) النجوم الزاهرة وحواشيها ١٠ — ١٢٨ .

(٢) لعب العرب لتيمور ٥٧ ورحلة عبد اللطيف البغدادى والخطط المقريزية .

بردى : «فى أول ربيع الأول توجه السلطان (الملك الكامل) إلى سرياقوس وأحضر الأوباش فلعبوا قدامه باللبخة ، وهى عصى كبار حدث اللعب بها فى هذه الأيام ، ولما لعبوا بها قتل رجل رفيقه فخلع السلطان على بعضهم وأنعم على كبيرهم بخبز فى الحلقة » يراد أجرى له جراية خبز » .

فهذا ماكان من أولية هذه اللعبة التى لاتزال معروفة يمارسها أهل الريف فى أفراحهم وأعيادهم ، وأصبحت من التراث الشعبى الذى يمارسه بعض الفرق الفنية فى القاهرة والعواصم الكبرى .

* * *

المـارماهى

ضرب من السمك الشبيه بالحيات ، ذكره الجاحظ فى الحيوان[1] من نحو ١٠٠٠ عام وزعم أنه إما أن يكون من أولاد الحيات انقلبت وتحولت بما عرض لها من طبيعة البيئة والماء . وإما أن يكون من نسل سمك وحيات تلاقحت فأنتجت هذا الضرب وضبطها بالمر فى معجمه بكسر الراء .

ويقول القزوينى فى عجائب المخلوقات[2] عند الكلام على بحر الهند (المحيط الهندى) : «ومنها سمكة خضراء رأسها كرأس الحية من أكل منها اعتصم من الطعام أياما ، فهى سمكة مدورة يقال لها مارِما هى على ظهرها شبه عمود محدد الرأس لاتقوم لها سمكة إلا تضربها بذلك العمود وتقتلها .

وقد قيل : « حدث عن البحر ولاحرج وقال داود الأنطاكى فى التذكرة : « مارِماهى هو حيات الماء المعروف عندنا بالأنكليس سمك شبيه بالحيات كله دهن ». والأنكليس ذكره الجاحظ أيضا ، ولفظه يونانى معرّب كما فى معجم الحيوان للمعلوف . وضبطه صاحب القاموس وكذا الدميرى فى حياة الحيوان بفتح الهمزة واللام وبكسرهما . وقال المعلوف : « ويعرف فى الشام بالجنكليس وفى مصر بشعبان الماء وفى بغداد بالمرمريج .

أما المارِماهى ففارسى مركب من « مارِ » بمعنى الحية ، «وماهى» بمعنى السمك كما فى معجم استينجاس . ويقال له أيضا بالفارسية : « ماهى مار » بالقلب بنفس المعنى السابق .

* * *

(١) الحيوان من ٤ — ١٢٩ .
(٢) عجائب المخلوقات ١١٠ .

المحمل والكسوة الشريفــة

المحمل : تحفة مصرية قديمة من عهد شجرة الدر ، وهو إطار عظيم مكعب الشكل تعلوه قمة هرمية ،

وله ستور من الديباج الأحمر عليها رخارف وكتابة مطرزة تطريزا فاخرا بالذهب على أرضية من الحرير الأخضر أو الأحمر وله قماقم أربعة من الفضة المطلية بالذهب ، وعلى أطراف هذا الكساء شراريب تعلوها كرات فضة يتفرع منها أسلاك دقيقة .

أما كسوة الكعبة فكانت أجزاء كثيرة من المُخْمَل الأسود تعلوها كتابات دهبية وزخارف توضع على صناديق خشبية مستطيلة وتحملها الجمال كما يَحمِل المحمل جمل ضخم يسمى جمل المحمل ، يتمتع بما يتمتع به المحمل من تبرك به . وهذا الجمل يعفى من العمل بقية السنة ، ويعلف ويعتنى به عناية كاملة .

والمحمل لايحوى إلا مصحفين صغيرين داخل صندوقين من الفضة المذهبة معلقين بالقمة . ويحتفل بالمحمل فى شوارع القاهرة مصحوبا بالموسيقات والمزامير والطبول كما يخرج معه أصحاب الطرق الصوفية يتمارسون طقوس الذكر على صور شتى ، مع رفع الصوت بالتكبير والتهليل وأغانى الحج ، ثم يحتفل به فى ميدان القلعة . وكان يحضر هذا الاحتفال نائب عن الحكومة وأمير الحج وبعثة الحج وبعض العلماء والكبراء ، وقد جرت العادة أن ينحنى أمير الحج إلى مقود الجمل ويقبله . وكان هذا الاحتفال يثنى مرتين . مرة عند خروج الحجاج فى ذى القعدة ، ومرة عند عودتهم منه فى المحرم ، وكان يثير فى جماهير الناس عاطفة دينية شديدة فى تلك الأثناء ، وتطلق المدافع من القلعة فى هاتين المناسبتين . ويقضى المصريون هذين الوقتين فى فرحة كبيرة وابتهاج بهاتين المناسبتين : سفر المحمل إلى الحجاز وعودته منه محملا بالكسوة القديمة التى وضعت

بدلها الكسوة الجديدة ، وتوزع بعض أجزائها على الأعيان والفضلاء .

هذا ماكان أمر المحمل فى أيامنا إلى ماكان من تدخل إخواننا الوهابيين لمنعه شيئا فشيئا إلى أن ألغى تمام الإلغاء .

وكان للمحمل مصلحة حكومية تعنى بإعداده هو والكسوة . أما الكسوة الآن فيجرى عملها طوال العام فى المملكة العربية السعودية مع إثارة من بقية من تلاميذ من كان يعملها من الصناع المصريين المهرة طوال العام .

وترجع أولية الاحتفال بالمحمل إلى عهد قديم ، إذ يذكر صاحب النجوم الزاهرة فى حوادث سنة ٦٧٨ أنه فى يوم الأربعاء الثانى والعشرين من شعبان حدث الطواف بكسوة الكعبة عظّمها الله تعالى ، بمصر والقاهرة على العادة ، ولعبت مماليك السلطان الملك المنصور قلاوون أمام الكسوة بالرماح والسلاح . قال : وأظن هذا أول ابتداء سوق المحمل المعهود الآن ، أى سنة ٨٤٠ .

* * *

المنجنيق

آلة من آلات الحرب الضخمة المتطورة . الملاطيس جمع ملطاس ، وهو حجر ضخم يدق به النوى .

وهى كلمة معربة من الفارسية اختلف فى تأصيلها ، فصاحب القاموس يذكر أن أصلها : مَن جَه نَيك أى ما أجودنى : أما أدى شير فى الألفاظ الفارسية المعربة فيذكر أن أصلها : مَنجَك نَيك ، وأن منجك معناه الارتفاع إلى فوق ولاريب أن الكلمة مأخوذة من الفارسية وإن كان فرنكل واستينجاس ١٣٢٤ يذهبان إلى أنها مأخوذة من اليونانية (ماجانون) . واختلف فى ضبطها بعد التعريف بين منجنيق ومنجنوق ومنجليق ، بكل هؤلاء نطق العرب .

ولعل أقدم نص وردت فيه الكلمة قول زفر بن الحارث لقد تركتنى منجنيق ابن بحدل أحيد عن العصفور حين يطير

وزفر هذا من التابعين كانت وفاته سنة ٧٥ هـ ومن أقدم هذه النصوص أيضاً قول جرير المتوفى سنة ١١٠ هـ :

يلق الزلازل أقوام دلفت لهم ... بالمنجنيق وصكا بالملاطيس

وقد اشتق العرب المنجنيق فعلا فقال أحد الأعراب فى جواب لأبى عبيدة كانت بيننا حروب عون ، تفقأ فيها العيون مرة نجنق ومرة رشق .

وقال العرب كذلك جَنَّقونا بالمجانيق تجنيقاً ، أى رَمونا بأحجارها . ومن ذلك أيضاً الجنق : أصحاب تدبير المنجنيق ، وقالوا أيضاً : مجنقوا المنجنيق وجنقوه ، أى استعملوه ومهما يكن من أمر تأصيلها وما يدور حولها من مباحث لغوية فإن المراد بها أنها آلة حربية ضخمة لرمى الحجارة الضخمة كانت تستعمل فى الحروب مماثلة للمدافع الحربية التى تستعملها الجيوش فى عصرنا هذا .

وأول الأخبار فى استعمالها فى الإسلام كان فى سنة ٧٢ من الهجرة أيام حصار الحجاج لعبدالله بن الزبير بمكة .

وقد حج بالناس فى تلك السنة الحجاج ابن يوسف إلا أنه لم يتمكن من الطواف

بالكعبة ولاسعى بين الصَّفَا والمروة ، منعه ابن الزبير من ذلك وكذلك لم يتمكن ابن الزبير ولا أصحابه من الوقوف بعرفة ولم يرموا الجمار ، فبطل حج الفريقين جميعاً .

وحج ابن عمر تلك السنة ، وأرسل إلى الحجاج ، أن اتَّقِ الله واكفف هذه الحجارة عن الناس فإنك فى شهر حرام . وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ، وإن المنجنيق قد منعهم من الطواف . فبطل الرمى حتى عاد الناس من عرفات وطافوا وسعوا . ولم يمنع ابن الزبير الحاج من الطواف والسعى . فلما فرغوا من طواف الزيارة نادى منادى الحجاج : انصرفوا إلى بلادكم فإنا نعود بالحجارة على ابن الزبير الملحد !

فأخذ الحجاج حجر المنجنيق بيده فوضعه فيه ورمى به معهم ، ولم يزل القتال دائراً حتى قتل ابن الزبير بعد حصار دام ثمانية أشهر وسبع عشرة ليلة . وكان مقتله سنة ٧٣ .

فهذا أول خبر فى استعمال المنجنيق .

وقد استعمل المنجنيق بعد ذلك بعد تطويره وتضخيمه فى سنة ٧٤٤ يقول ابن كثير فى البداية والنهاية[1] : « وفى شهر رمضان نصب المنجنيق الكبير على باب الميدان الأخضر وطوال أكتافه ثمانية عشر ذراعاً ، وطول سهمه سبعة وعشرون ذراعاً ، وخرج الناس للفرجة عليه ، ورمى به فى يوم السبت حجر زنته ستون رطلا ، فبلغ إلى مقابلة القصر من الميدان الكبير وذكر معلم المجانيق أنه ليس فى حصون الإسلام مثله ، وأنَّه عمله الحاج محمد الصافى ليكون بالكَرَك فقدر الله أنَّه خرج ليحاصر الكَرَك[2]

---

(١) البداية والنهاية ١٤ : ٢٠٧

(٢) الكرك قلعة حصينة جدا فى طرف الشام من نواحى البلقاء .

قميص يوسف

أجرى الله تعالى أمر يوسف من ابتدائه إلى انتهائه عَلَى ثَلَاثَة أَقْمِصَة[1] :

أولها : قميصه المضرج بدم كذب ؛ حين ذهب أخوة يوسف به ، وأخفوه حسدًا منهم فى الجب ثم رجعوا إلى أبيهم وقد ضرجوا قميصه بدم كذب وقالوا : قد أكله الذئب : فلم يصدقهم يعقوب وعلم أن ذلك خدعة منهم . وقال : تالله ما رأيت ذئباً أحلم من هذا وأرفق ! أكل ابنى ولم يمزق قميصه !

والثانى : قميصه الذى قُدَّ من دُبُر ، حين فتنت به امرأة العزيز وراودته عن نفسه وشقت قميصه من طوقه الأعلى فانخرق إلى أسفله من دُبر . وشهد شاهد من أهلها : إن كان قميصه قُدّ من قبل فصدقت وهُوَ من الكاذِبين ، وإن كان قميصه قُدَّ من دُبرٍ فكذبت وهُوَ من الصَّادِقِين . فَلَمَّا رَأَى العزيز أَنَّ قَمِيصَهُ قُدَّ من دبرٍ قال للنسوة : إِنَّهُ من كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيم !

والثالث : قميصه الذى شم ريحه أبو يعقوب فارتد بصيراً بعد أن أدركه العمى حُزْنا على فقده ، فأدركَ من رائحة القميص أنه قميص ولده الغائب عنه يوسف بعد مرور نحو سبعين عاماً فعادت إليه الفرحة وأَعَادَ اللهُ إليه بصرَه .

وكان أخوهم يهوذَا قالَ لإخوته : قد ذهبت إلى أبى بقميص الترحة من قبل ، أى الحزن فدعونى أذهب إليه بقميص الفرحةِ .

ومن نوادر القمصان ما وقع لأبى الحارث جُمّيز ، وهو أنَّه رُئِىَ فى ثِياب رثة متخرقة فقيل له : ألَا يكسُوكَ مُحمد بن يحيى ؟ فقالَ : لو كَانَ فِى بيتٍ مملوءٍ برا وجَاءه يعقوب ومعه الأنبياءُ شفعاء ، والملائِكة ضمناء يطلب منه إبرة ليخيط بها قميص يوسف الذى قُدّ من دُبرٍ ما أعاره إيَّاهَا ، فكيف يكسونى ؟ ! وأنْشَد :

لو أن دارك أنبتت لك واحتشت
إبراً يضيق بها فناءُ المنزل
وأتاك يوسف يستعيرك إبرة
ليخيط قد قميصه لم تفعل

(١) ثمار القلوب ٤٦ – ٤٨ .

سنو يوسف

وهى التى أشار إليها الكتاب العزيز فى قوله : «قَالَ : تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبا فما حَصدتُّم فذروه فى سُنبُلِهِ إلَّا قليلا مِمَّا تأْكُلُونَ * ثُمَّ يأْتى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُم لَهُنَّ إلَّا قَلِيلا مما تُحْصِنُون * ثم يأْتى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عامٌ فيه يُغَاثُ الناسُ وفيه يَعْصِرُونَ » .

وجاء فى الحديث الشريف قول الرسول الكريم : «اللهم اشدد وطأتك على مضر وابعث فيهم سنين كسنى يوسف . وأن الله استجاب دعاءه حتى شووا الجلد وأكلوا القدّ[1] » ويضرب بها المثل فى القحط والشدة .

يقول الثعالبى[2] : ومن قصة سنى يوسف أنه كان عليه السلام قد أعدّ فى سنى الخصب من الحنطة والشعير وسائر الحبوب فى الأهراء والخزائن مايكفى أهل مصر وغيرهم . فلما انتهت سنو الخصب وجاءت السنون الشداد جعل يوسف يبيعهم فى السنة الأولى بالدراهم والدنانير حتى استغرق دراهم مصر ودنانيرها ثم باعهم فى السنة الثانية بالحلى والجواهر حتى لم يبق فى أيدى الناس شىء منها ، ثم باعهم فى الثالثة بالمواشى والدواب حتى استولى عليها كلها . ثم باعهم فى الرابعة بالعبيد والإماء حتى لم يبق لأحدهم عبدٌ ولا أمة ثم باعهم فى الخامسة بالضياع والعقار والدور حتى جمع بين مُلك مصر وملكها . ثم باعهم فى السادسة بأولادهم حتى استرقهم ، ثم باعهم فى السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة إلا صار عبدا وصارت أمة له . ثم إنه عليه السلام قال : إنى لم أملك مصر لأملك أهلها ، ولم أبرهم لأجفوهم . فأعتقهم كلهم ورد عليهم أموالهم وأملاكهم وأولادهم .

---

(١) القد : بالفتح : الجلد وجلد السخلة .

(٢) ثمار القلوب ٤٩ .

عصا موسى

فى الكتاب العزيز : « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَىٰ » قال : هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ »

سئل يونس[1] بن حبيب عن قوله : « ولى فيها مآرب أُخرى » فقال : لست أُحيط بجميع مآرب موسى ص ولكنى سأنبئكم جملا تدخل فى باب الحاجة إلى العصا : من ذلك أنها تحمل للحية والعقرب ، وللذئب ، وللفحل الهائج ولعير العامة فى زمن هيج الفحول من الإبل وكذلك فحول الحجور من الخيل فى المروج . ويتوكأُ عليها الكبير الدالف والسقيم المدنف والأقطع الرجل والأعرج ، فإنها تقوم مقام رِجلٍ أُخرى . وتنوب للأعمى عن قائده . وهى للقصّار والفاشكار[2] والدّباغ . ومنها المفأّد للدلّة[3] . والمحراك للتنور . وهى لدقّ الجص والجبين[4] والسمسم ، ولخبط الشجر ، وللفيج[5] وللمكارى[6] . فإذا طال الشوط وبعدت الغاية استعانا فى حُضرهما وهرولتهما فى أضعاف ذلك بالاعتماد على وجه الأرض .

وهى تعدل من ميل المفلوج وتقيم من ارتعاش المبرسم ، ويتخذها الراعى لغنمه وكل راكب لمركبه ، ويدخل

---

(١) البيان ٣ — ٦٧ .

(٢) من بشارى ، الفلاحة بالفارسية .

(٣) المفاد : خشب يحرك بها التنور .

(٤) هو ما يعرف فى مصر بالمصيص .

(٥) الفيج : الذى يسعى على رجله يحمل الأخبار من بلد الى بلد .

(٦) المكارى : الذى يكريك دابة بالأجرة .

عصاه فى عروة المزور ويمسك بيـــده الطرف الآخر . وتكون إن شئت وتداً فى حائط ، وإن شئت ركزتها فى الفضاء وجعلتها قبلة ، وإن شئت جعلتها مظلة وإن جعلت فيها زُجًّا كانت عَنَزَة وإن زدت فيها شيئا كانت عكازا ، وإن زدت فيها شيئا كانت مِطرداً ، وإن زدت فيها شيئا كانت رمحا .

والعصا تكون سوطا وسلاحا ، وكان رسول الله ﷺ يخطب بالقضيب ، وكفى بذلك دليلا على عظم شأنها وشرف حالها وعلى ذلك الخلفاء وكبراء العرب من الخطباء .

* * *

القوافى الخمس

ذكر السيوطى فى بغية الوعاة[1] أن محمد بن الحسينى بن عمير اليمنى كان مقيما بمصر ، وصنَّف كتاب أخبار النحويين . ، ومن شعره وزعم أن ليس لقافيته خامس :

أسقمنى حب من هويت فقد
صرت بحبه فى الهوى آية

ياغاية فى الجمال صوره اللـ
ـه أمـا للصـدود مِن غايـة

تركتنى بالسقـام مشتهرا
أشهر فى العالم من راية

أحب جيرانكم من أجلكم
بحجة الطفل تشبع الداية

قال السيوطى : قلت ذيلت عليها بخامس :

أود أن لو أبيتُ جاركـم
ولو بمأوى الجمـال فى الثايـة

وأقول : «ومن روائع الشعر المتكلف قول الإمام النحوى الدماميني ، بقوله فى امرأة جبَّانة ، أى صانعة للجبن :

مذ تعانت صناعة الجبن خود
قتلتنـا عيـونهـا الفتانـة

لاتقل لى كم مات فيها قتيـل
كم قتيل بهذه الجبَّـانـة[2]

* * *

(١) بغية الوعاة ٣٧

(٢) الجبانة هنا المقبرة .

أثافى الشر

الأثافى : جمع أُثفيَّة ، والأُثفيَّة : حجر مثل رأس الإنسان .

وكثيرا ماتوضع القدر على أُثفيتين اثنتين إلى جوار قطعة من الجبل فتكون القطعة من الحبل ثالثة الأَثافى .

ويقال فى الأَمثال للرجل يرمى صاحبه بالمعضلات : رماه بثالثة الأَثافى ، أى بالشرّ كله . ومن ذلك قول خفاف بن ندبة :

وإن قصيدة شنعاء منى ... إذا حضرت كثالثة الأَثافى

وقال الأَصمعى : « كان جرير والفرزدق والأَخطل يُسمَّون : أَثافى الشرّ ، تهاجَوا أربعين سنة » .

* * *

همع الهوامع

فى شرح جمع الجوامع للسيوطى

يعد هذا الكتاب أجمع كتاب لمسائل فى العوامل ، و (الخامس) فى التوابع العربية وفروعها الدقيقة وتعليلاتها المتشعبة. أما المتن ، وهو جمع الجوامع فيقول فيه السيوطى : «جمعته من نحو مائة مصنف فلا غرو أن لقبته : جمع الجوامع.

(أما الهمع فهو فى جزأين نظام الأول منهما يجرى على إيراد بعض نصوص المتن يعقبها نصوص شرحها كل منهما بمعزل عن الآخر ويجرى النسق فيهما هكذا إلى تمام قسم كبير من الكتاب (الثانى) من جمع الجوامع وهو كتاب الفضلات .

أما الجزء الثانى فيستمر النسق فى أوله جريا على النسق نفسه إلى أن يختم الكتاب الثانى فى صدره بمنصوبات الأفعال . ثم يبدأ نسق آخر ، هو نظام الشرح المتداخل فى المتن بدءا من الكتاب (الثالث) من جمع الجوامع ، وهو المجرورات وما حمل عليها من المجزومات يتلوها الكتاب (الرابع) وأعراض التركيب ، و (السادس) فى الأبنية وهى علم الصرف المشتمل على صيغ الأفعال والأسماء وما يعرض لها من نحو الجمع والتصغير ، والنسب وبناء المصادر والآلات والمبالغة والإمالة والوقف .

أما الكتاب (السابع) فهو ما سماه السيوطى بالتصريف ، وهو القسم الذى تتغير فيه الكلمة لا لاختلاف المعانى كما يحدث من النقص والإدغام والإبدال والقلب والنقل ونحو ذلك مما لامدخل له فى الحروف ولا فى الأسماء المبنية ولا الأفعال الجامدة نحو ليس وعسى ، وإنما مدخله الاسم المعرب والفعل المتصرف فقط .

وأعقب هذا كله بخاتمة فى (الخط) ويعنى به مانسميه علم الرسم أو علم الإملاء ومنه فصل فى كتابة المصحف .

وأريد أن أنبه هنا على أن الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، وهى طبعة مطبعة السعادة سنة ١٣٢٧ الهجرية بتصحيح السيد محمد بدر الدين النعسانى قد أعتمدت على ثلاث مخطوطات كما ورد فى حواشى ص ٨٠ من الجزء الأول «بياض بالأصل فى النسخ الثلاث» . ومنها نسخة بخط السيوطى نفسه ويبدو أنه استعين بها أو ببعض قطعها أخيرا كما ورد فى هوامش ص ١١٧ من الجزء الثانى : وهكذا وجد بياض فى عدة نسخ منها نسخة بخط المؤلف بمكتبة المرحوم الشيخ إبراهيم السقا » .

والشيخ إبراهيم السقا هذا هو إبراهيم بن على حسن بن حسن السقا . مولده ووفاته بالقاهرة ١٢١٢ - ١٢٩٨ . وكان من الفقهاء الخطباء ، تولى الخطابة فى الأزهر نيفا وعشرين عاما . وهو صاحب كتاب : «غاية الأمنية ، فى الخطب المنبرية» مطبوع .

* * *

لفظان غريبان

أما الأول فكلمة «الحُملان» التى يبدو أنها عامية مبتذلة مع أنها عربية فصيحة ، وهى بضم الحاء كما فى اللسان . حمل الشىء حملاً وحُملاناً ومثله فى القاموس .

وأنشد السيوطى فى البغية ٢٨٠ لعبد الله المالقى :

سهرت أعين ونامت عيون
لأمور تكون أو لا تكون
فاطرد لهم ما استطعت عن النف
س فحُملانك الهموم جنون
إن ربا كفاك بالأمس ما كا
ن سيكفيك فى غد مايكون

وأما الثانية فكلمة «المِداس» قد تظن كذلك مع أنها عربية فصيحة . فى المصباح (دوس) : «وأما المِداس الذى ينتعله الإنسان فإن صح سماعه فقياسه كسر الميم لأنه آلة» وإلا فى الكسر أيضا حملا على النظائر الغالبة من العربية» .

وانظر الخزانة ٣ : ٤٤ ـ ٤٥ حيث تجد خبرا مسهبا ورد فيه ذكر «المِداس» تعليقا على قول أبى نواس :

وإذا المطى بنا بلغن محمدا
فظهورهن على الرحال حرام

وقد ضمن المِداس معنى المطية ، وهو خبر طريف.

عبد السلام هارون
الأمين العام للمجمع